

تفسير قوله تعالى: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ

{ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُمْ فَانجَبْتَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ بَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادُّكُرُوا الْآءَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } . أعود بالله من الشيطان الرجيم. يقول الله جل وعلا: { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَانجَبْتَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ } . هذا مما قص الله علينا من قصص أنبيائه مع أممهم. لما قال نوح لقومه: { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } وردوا عليه ذلك الرد القبيح الشنيع، وقالوا له: { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ } وقابل سفاهتهم وجهلهم وقبح ردهم بالكلام اللطيف، والجواب الكريم الخالي من بذاءة اللسان اللين. كما هي عادة الرسل في مخاطبتهم مع الكفرة الجهلة { يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي صَلَاحٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } قال أيضا لقومه: { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ } أجرى الله العادة بأن الأمم إذا بعث فيهم رسل منهم يقولون: لو كان الله مرسلًا رسولًا لما جعله بشرا يأكل الطعام، ويشرب كما نشرب، ويروح إلى السوق ليقضي حاجته، ويتزوج ويولد له. لو كان مرسلًا رسولًا لأرسل الملائكة، لأن لهم هبة ليست عند آدميين، وعلامات تميزهم عن الآدميين، ويقولون للرسول: أنتم بشر مثلنا تأكلون كما نأكل، وتشربون كما نشرب، وتذهبون إلى الأسواق لقضاء حاجاتكم كما نفعل. وتتزوجون كما نتزوج، ويولد لكم كما يولد لنا؛ فأنتم بشر مثلنا لا يمكن أن تكون لكم تبعًا، وأن تكونوا أفضل منا بحيث تكونون أمرين ناهين علينا. هذه عادة أجزاها الله كما قال تعالى: { وَمَا مَتَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } ؛ كيف يبعث الله بشرا يأكل ويشرب ويذهب إلى السوق؟! وهذا كثير في القرآن: { فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلًا وَاجِدًا تَتَّبِعُهُ } لا يمكن هذا. { أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا } واستغنى الله { } ما أنتم إلا بشر مثلنا { } ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذا لحاسرون { فيعجبون من أن الله يبعث الرسل من البشر ويستنكرون هذا الأمر، والرسل تبين لهم أن هذا لا عجب فيه؛ لأن الله ما أرسل إلى الأمم إلا رسلهم كما قال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا } لم يرسل قبل ملائكة. وقال جل وعلا لما قالوا: { مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } قال الله: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } إلى غير ذلك.